بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 81 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:25\04\2024 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

ما زال الحديث في التفريق بين الإنزال والتنزيل، واتضح لدينا أن المقاربة اللغوية لا يمكن حسم الفرق على أساسها؛ لأن القدر المتيقن منها أو من علماء اللغة لا يحسن الأمر، الزائد على هذا القدر المتيقن مأخوذ من كلمات علماء التفسير، وليس مقاربة لغوية في حد ذاتها.

لكن ينبغي أن نلتفت إلى أن المقاربة اللغوية صحيح أنها لا تحسم المشكلة، لكن لا تمانع ما يمكن أن يأتي من تفسير بعد ذلك؛ لأن علماء اللغة غاية ما يمكن أن يقال إنهم جعلوا الفعل المضاعف والفعل المقرون بهمزة النقل للتعدية. هذا البيان لا يمنع وجود شيء زائد وإضافي نستطيع من خلاله أن نفرق بين الإنزال والتنزيل. هذا كان في المقاربة اللغوية.

المقاربة الثانية: المقارنة من خلال النظائر، والنظائر في غاية الكثرة، وفي باب اللغة تتبع النظائر يولّد وثوقاً في المعنى الموضوع له أو في المعنى الذي ينصرف إليه الذهن عند الاستعمال.

من جملة النظائر -كما أشرت- أعلم وعلّم، أنبأ ونبّأ، والنظائر كثيرة. إذا تتبعنا هذه النظائر نرى وجود فرق بين أعلمت وعلمّته، أعلمته أي أوصلت إليه معلومة، وهذه لا تحتاج إلى مهلة وتريث وجهد وطول زمان. بخلاف علّمته فيها نوع من التريث ونوع المهلة.

وأما نبّأ وأنبأ -كما ذكرت في سورة التحريم- ورد التعبير بنبّأ وورد التعبير بأنبأ، تلك المرأة التي نقل إليها بعض السر، فهي ليست مباشرة ذهبت وأخبرت به، بل تجلجل في قلبها وتريثت، ثم رمته. فلذا عبرت الآية الشريفة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِه حَديثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ به وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْه عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها به قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَليمُ الْخَبير﴾[1] فاستعملت الآية الفعل المضاعف ﴿أنبأك﴾ فاستعملت همزة النقل؛ لأن الله سبحانه وتعالى أو أي شخص آخر، ربما

[1] التحريم: 3

لم تلتفت المرأة إلى أن الله سبحانه وتعالى ولذا سألت، أي شخص آخر نقل له هذا الكلام، فقد نقله له دفعة واحدة.

مثلاً في سورة الكهف ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرا﴾[2] هذا ليس أنبأ، وإنما هو تبيين من نبّأ؛ لأنه فيه كلام كثير ﴿أَمَّا السَّفِينَة ...﴾[3] ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ ...﴾[4] ﴿وَأَمَّا الْجِدار ...﴾[5] ففيه مقاطع من الكلام، فاستعمل الفعل المضاعف ولم يستعمل مجرد الفعل الذي معه همزة النقل.

فهذا ليس أمراً مختصراً يطلق على شكل دفعة واحدة، بل هناك تفصيل نحتاج إليه في عملية الإخبار هذه.

﴿أنبّئك﴾ المضعفة وردت في القرآن الكريم في ستة وأربعين موضعاً، مثلاً في سورة يوسف ﴿نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِه﴾[6] باعتبار يوجد فيها شرح وتفصيل للرؤية التي رآها الملك، ولم يقل أنبئنا التي تفيد على نحو الاختصار، ففي الآية بدأ يوسف عليه السلام يفصّل له، ويذكر للحوادث التي سوف تأتي علاجاتها، ففيها نوع من التفصيل، نوع من المكث، نوع من المهلة.

كذلك من جملة النظائر ما تقدم في البحث السابق من التفريق بين التبليغ والإبلاغ، فالأول يفيد الإخبار مع المتابعة، والثاني يفيد مجرد نقل الخبر. فالأول يفيد التكثير فقد يأتي مع المبالغة ويتناسب مع بعض كلمات علماء اللغة التي نقلناها في البحث السابق، أي المعنى اللغوي والمعنى الصرفي لا يمنع عن هذا التفريق المستفاد من الاستعمال في النظائر.

بناء على ذلك من حيث تتبع النظائر في مقام الاستعمال يمكن لنا أن نقول إن الفرق بين التنزيل والإنزال بحسب النظائر وبحسب المعنى اللغوي والصرف يقتضي أن يكون التنزيل فيه تفصيل وفيه مدة وفيه مهلة وفيه لبث، بخلاف الإنزال.

---

[2] الكهف: 78
[3] الكهف: 79
[4] الكهف: 80
[5] الكهف: 81
[6] يوسف: 36

وهذا يتناسب مع النظرية التي تبناها الزمخشري سابقاً، وسار عليها أكثر علماء التفسير من أن الإنزال يكون على وجه دفعة واحدة وأن التنزيل يكون على دفعات.

المقاربة الثالثة: الناحية البلاغية وعلم البيان.

اتضح لدينا أن علماء اللغة نصوا على أن الجذر اللغوي لكلا الكلمتين معناه هبوط شيء، وهذا الهبوط قد يكون لأمر حسي كإنزال كتاب عن الرف إلى الأرض، وقد يكون بأمر معنوي. لكن لا يعني ذلك يلزم التجوز في استعمال الكلمة.

فكما أن الهبوط المادي يصدق عليه إنزال وتنزيل، فالهبوط المعنوي يصدق عليه إنزال وتنزيل.

من هنا إذا جئنا إلى الاستعمالات القرآنية، نجد أن بعض الأمور اشترك فيها الإنزال والتنزيل، أي: في القرآن الكريم بعض الأمور كما استعملت معها مفردة الإنزال استعملت معها مفردة التنزيل.

لكن بعض الأمور اختصت بإحدى المفردتين، وهذا لا بد من استعراضه حتى نقف على الفرق الجوهري بين الأمرين.

استعمل القرآن الكريم في الأمور المادية مثل الحديد، قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[7] الحديد أمر مادي. واستعمل الإنزال في الأنعام، قال: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[8].

هنا من الناحية البيانية قد يتوقف الباحث، أن إنزال الحديد هو أمر مادي بمعناه اللغوي للإنزال وهو الهبوط ممكن، أن الحديد كان في مكان ثم هبط إلى عالم الدنيا.

لكن في مسألة إنزال الأنعام، فهذه الأنعام وجدت على الأرض، فما معنى إنزال الأنعام؟ فقد يتوقف عند ذلك من الناحية البيانية.

ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أنه لما قلنا إن الهبوط قد يكون هبوطاً مادياً وقد يكون هبوطاً معنوياً، فلا يعني ذلك أنه يرجع الأمر إلى المتعلق، وإلا المتعلق في كلا هاتين الآيتين هو أمر مادي، حديد وأنعام،

---

[7] الحديد: 25
[8] الزمر: 8

إنما هبوط وقد يكون هبوطاً حسياً وقد يكون هبوطاً معنوياً، فالإنشاء والإبداع والخلق والصيرورة وما شئت فعبر هي نوع من الهبوط المعنوي.

ولذا عندما تستعمل مثل هذه الآيات يُشار إلى الله سبحانه وتعالى في كثير من الآيات بهذه الإشارة، ﴿العلي العظيم﴾ ﴿الكبير المتعال﴾ ﴿رفيع الدرجات﴾ وما شابه ذلك، فهي تدل على أن هذه الصيرورة وهذا الإنشاء صدر من مقام ومن رتبة هي رتبة خالقية، هي رتبة الإبداع، فناسب حينئذ أن نستعمل معها مفردة تدل على الهبوط؛ لأن هذا الفعل صدر من الجبار، صدر من العظيم، صدر من الكبير، وما شابه ذلك من التعبيرات.

فلابد لنحسم المشكلة نهائياً تتبع استعمالات نفس التنزيل والإنزال في القرآن الكريم، وهي المشكلة التي كانت تواجه علماء التفسير.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[9] استعمل مع الكتاب نزّل، ومع التوراة والإنجيل استعمل أنزل. لكن نلاحظ أنه بعد ذلك استعمل مع الكتاب -أيضاً- مفردة أنزل.

هذه أصعب مشكلة واجهة علماء التفسير، نقف عندها من خلال الاستعمالات القرآنية، ونحل هذه المشكلة لنرجع إلى بحثنا الأصلي، وهو ما تبقى لنا من آيات في سورة الإنسان.

---

[9] آل عمران: 3